159166

عبقرية محمد

تقديراً لعبقرية النبي محمد (ص)
بالمقدار الذي يدين به كل انسان ، وبالحق
الذي يبث له الحب في قلب كل انسان

تأليف
عباس محمود العقاد

نشر وتوزيع مكتب العروبة للطباعة والنشر
بادارة محسن المطلبي

بغداد : جديد حسن باشا مجاور مطبعة التضامن
ثمن النسخة ١٠٠ فلسا وللقوات المسلحة والطلاب
ب ٥٠ فلسا فقط

مطبعة دار التضامن ـ بغداد

المقدمة

تعود بنا هذه المقدمة ثلاثين سنة ، الى اليوم الذى سمعت فيه أول اقتراح بتأليف كتاب عن محمد عليه السلام

وكنت أقيم يومئذ في ضاحية العباسية البحرية على مقربة من الساحة التي كانت معدة للاحتفال بالمولد النبوى في كل عام

ولنا رهط من الاصدقاء المشتغلين بالادب يشتركون في قراءة كتبه العربية والافرنجية : ويترددون معا على الاحياء الوطنية ، وقلما يترددون على غيرها ، فلا يزالون متنقلين فترة بعد فترة بين الحي الحسيني والحي الزينبي : او بين منشية القلعة وضاحية العباسية ، او بين الروضة والخليج على حسب المناسبات : وعلى غير مناسبة في كثير من الاوقات .

وكان رهطا له نقائض الدنيا مجتمعات : نقائض الشباب ، ونقائض الحياة الفنية ، ونقائض الاختلاف في البيئة بين ناشيء في العاصمة وناشيء في الريف وناشيء في الصعيد وناشيء في الثغور ، الى غير ذلك من النقائض التى كانت حلية لهذه الجماعة ، ولم تكن فيها من دواعى التفرق والشتات

ومن عجائبها ان الذى كان يغريها بالاحياء الوطنية هو قراءتها في الكتب الافرنجية التى كانت شائعة بينها ، لانهم كانوا يقرأون أكثر ما كانوا يقرأون كتب « دكنز » و « هازليت » و « لي هنت » و « كارليل » .. وهم كتاب مولعون بعرض الاخلاق الاجتماعية ودراسة العادات المحلية وتمثيل الريفيين والحضريين في اوضاعهم المختلفة ، ولهم فصول عن الاسواق والدكاكين والباعة تفيض بحسن الملاحظة وبراعة الفكاهة ومتعة

القراءة وتعود من يدمن قراءتها ان يتحرى نظائرها حيثما رآها .

ففى يوم من ايام المولد ــ والرهط يزورنى لنؤم الساحة مجتمعين في المساء ــ كان الكاتب الانجليزى العظيم توماس كارليل هو محور الحديث كله ، لانه كما يعلم الكثيرون بين قراء العربية صاحب كتاب الابطال الذى عقد فيه فصلا عن النبي محمد عليه السلام ، وجعله نموذج البطولة النبوية بين ابطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل .

وقال صديقنا المازنى « بل السيف أكرم من هذا ، وانما سوغ صاحبنا شيئا آخر يستحقه .. وأشار الى قدمه »

وارتفعت لهجة النقاش هنيهة ، ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة من الندى ، واعتذاره قبل خروجه بتفسير كلامه على معنى مقبول أو خيل اليه انه مقبول .

وتساءلنا : ما بالنا نقنع بتمجيد كارليل للنبى ، وهو كاتب غربي لا يفهمه كما نفهمه ، ولا يعرف الاسلام كما نعرفه ؟ ثم سألني بعض الاخوان « ما بالك انت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابا عن محمد على النمط الحديث ؟ »

قلت « افعل .. وارجو ان يتم ذلك في وقت قريب »

ولكنه لم يتم في وقت قريب .. بل تم بعد ثلاثين سنة !

وشاءت المصادفة العجيبة ان تتم فصوله في مثل الايام التى سمعت فيها الاقتراح لاول مرة ، فكتبت السطر الاخير فيه يوم مولد النبي على حسب الشهور الهجرية ، واتفقت هذه المصادفة على غير تدبير منى ولا من احد ، لانى لم ادبر لنفسى اوقات الفراغ التى هيأت لى اتمام فصوله ، وتقسيم العمل فيه يوما بعد يوم .

والخيرة في الواقع ..

والخيرة كذلك في هذا التأخير ..

فاننى لو كتبته يومئذ لعدت الى كتابته الان من جديد ، واحتجت الى السنين الثلاثين اضيف خبرتها وقراءتها ورياضتها النفسية والفكرية الى محصول ذلك العمر الباكر اذ هو عمر يستطيع المرء ان يمتلىء فيه اعجابا بمحمد ، لانه عمر الاعجاب والحماسة الروحية ، بيد أنه لا يستطيع أن يقيسه بمقياسه وأن يشعر بشعوره في مثل تجاربه ، وفي مثل السن التى اضطلع فيها بالرسالة وان تقارب السن هنا لضرورة لا غنى عنها لتقريب ذلك الشأو البعيد من شتى نواحيه .

اين كنا قبل تلك السنين الثلاثين ؟

انها مسافات في عالم الفكر والروح .. لو تمثلت مكانا منظورا لاخذ المرء راسه بيديه من الدوار وامتداد النظر بغير قرار

كم رأى ؟ . كم مذهب ؟ . كم وسواس ؟ . كم محنة ؟ . كم مراجعة ؟ . كم زلزال يتضعضع له الكيان وتميد معه الدعائم والاركان ؟ . كم وكم في ثلاثين سنة مما يطرق نفسا لا تعفيها الحياة من التجارب والعوارض لمحة عين في نهار ؟ . وكم لذلك كله من اثر في توطيد الراى وتهدئة الثواثر وتجلية الغبار ! . وكم يضيف ذلك كله الى الشباب الباكر الذى كان يحلم يومئذ بالعظمة في كل أوج . وبالاوج المحمدى في عليا مراتب الانبياء ؟

الخيرة في الواقع .. والخيرة في ذلك التأخير ..

واليوم ونحن نضع كتابنا هذا عن « عبقرية محمد » (ص) بين يدى القراء ، لا نقول اننا قد استوفيناه كما اردناه ، ولا اننا فصلنا فيه الغرض الذى توخيناه ، ولكننا نقول اننا التزمنا فيه الباعث الذى اوحى الاقتراح بتأليفه لاول مرة ، كانا شرعنا فى كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة ، فكتبناه ونحن نستحضر في الذهن تبرئة المقام المحمدى من تلك الاقاويل التى يلغط بها الاغرار والجهلاء عن حذلقة او سوء نية . ونظرنا اتفاقا فاذا

باطول الفصول فيه الفصلان اللذان شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة الزوجية .. لانهما كانا مثار اللغط تلك الليلة على مقربة من ساحة المولد ، وكانا مثار اللغط في كل ما ردده سفهاء الشائنين من الاصلاء والمقتدين في هذا الباب .

وليس الكتاب شرحا للاسلام او لبعض احكامه ، او دفاعا عنه او مجادلة لخصومه . فهذه اغراض مستوفاة في مواطن شتى يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها ، وقدرة عليها .

انما الكتاب تقدير « لعبقرية محمد » بالمقدار الذى يدين به كل انسان ولا يدين به المسلم وكفى ، وبالحق الذى يبث له الحب في قلب كل انسان ، وليس في قلب كل مسلم وكفى

فمحمد هنا عظيم .. لانه قدوة المقتدين في المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس .

عظيم لانه على خلق عظيم

وايتاء العظمة حقها لازم في كل آونة وبين كل قبيل .. ولكنه في هذا الزمن وفي عالمنا هذا الزم منه في ازمنة اخرى ، لسببين متقاربين لا لسبب واحد : احدهما ان العالم اليوم احوج ما كان الى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة .. ولن يتاح لمصلح ان يهدى قومه وهو مغموط الحق . معرض للجفوة والكنود .

والسبب الاخر ان الناس قد اجترأوا على العظمة في زماننا بقدر حاجتهم الى هدايتها . فان شيوع الحقوق العامة قد اغرى اناسا من صغار النفوس بانكار الحقوق الخاصة : حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة .. والمساواة هي شرعة السواد الغالبة في العصر الحديث .

يرون ان البخار يلغى الشراع ، وربما كان الاختراع السابق

ادل على القدرة وابين على الفضل من الاختراع الذى تلاه ولم يكن ليتلوه لولا ما تقدم عليه .

وينظرون الى أقطاب الدنيا كأن الأصل في النظر اليهم أن يتجنوا عليهم ويثلبوا كرامتهم ، ولا يثوبوا الى الاعتراف لهم بالفضل الا مكرهين ، بعد ان تفرغ عندهم وسائل التجنى والثلب او الافتراء

هذه الآفة تهبط بالخلق الانسانى الى الحضيض .

وانه لنافع للمسلم ان يقدر محمدا بالشواهد والبينات التى يراها غير المسلم ، فلا يسعه الا ان يقدرها ويجرى على مجراه فيها . لان مسلما يقدر محمدا على هذا النحو يحسب محمدا مرتين : مرة بحكم دينه الذى لا يشاركه فيه غيره ، ومرة بحكم الشمائل الانسانية التي يشترك فيها جميع الناس

وحسبنا من « عبقرية محمد » ان نقيم البرهان على ان محمدا عظيم في كل ميزان : عظيم في ميزان الدين ، وعظيم فى ميزان العلم ، وعظيم في ميزان الشعور ، وعظيم عند من يختلفون في العقائد ولا يسعهم ان يختلفوا في الطبائع الادمية ، الا ان يرين العنت على الطبائع فتنحرف عن السواء وهى خاسرة فى انحرافها ، ولا خسارة على السواء .

ان عمل محمد لكاف حد الكفاية لتخويله المكان الاسنى من التعظيم والاعجاب والثناء .

انه نقل قومه من الايمان بالاصنام الى الايمان بالله ، ولم تكن اصناما كاصنام يونان يحسب للمعجب بها ذوق الجمال ان فاته ان يحسب له هدى الضمير . ولكنها اصنام شائهات كتعاويذ السحر التى تفسد الاذواق وتفسد العقول ، فنقلهم محمد من عبادة هذه الدعامة الى عبادة الحق الاعلى ، عبادة خالق الكون

الذي لا خالق سواه ، ونقل العالم كله من ركود الى حركة ومن فوضى الى نظام ، ومن مهانة حيوانية الى كرامة انسانية ، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده احد من اصحاب الدعوات

ان عمله هذا لكاف لتخويله المكان الاسنى بين صفوة الاخيار الخالدين ، فما من احد يضن على صاحب هذا العمل بالتوفير ثم يجود بالتوفير على اسم انسان .

الا اننا نمضى خطوة وراء هذا ، حين نقول ان التعظيم حق لعبقرية محمد ولو لم تقترن بعمل محمد .

لان العبقرية قيمة في النفس قبل ان تبرزها الاعمال ويكتب لها التوفيق ، وهى وحدها قيمة يغالى بها التقويم .

فاذا رجح بمحمد ميزان العبقرية ، وميزان العمل ، وميزان العقيدة فهو نبي عظيم وبطل عظيم وانسان عظيم .

وحسبنا من كتابنا هذا ان يكون بنانا تومىء الى تلك العظمة في آفاقها ، فان البنان لاقدر على الاشارة من الباع على الاحاطة ، وافضل من عجز المحيط طاقة المشير .

المؤلف

علامات مولد

عالم

كان عالما متداعيا قد شارف النهاية .. خلاصة ما يقال فيه انه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام ..

اى انه فقد اسباب الطمأنينة في الباطن والظاهر : طمأنينة الباطن التى تنشأ من الركون الى قوة في الغيب ، تبسط العدل وتحمى الضعف ، وتجزى الظلم ، وتختار الاصلح الاكمل من جميع الامور .

وطمأنينة الظاهر التى تنشأ من الركون الى دولة تقضى بالشريعة ، وتفصل بين البغاة والابرياء ، وتحرس الطريق ، وتخيف العائثين بالفساد ببزنطة قد خرجت من الدين الى الجدل العقيم الذى اصبح بعد ذلك علما عليها ، وتضاءلت سطوتها فى البر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتمى بجوارها .

وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس .. وكمنت حول عرشها كوامن الغيلة ، وبواعث الفتن ، ونوازع الشهوات .

والحبشة ضائعة بين الاوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة ، وبين التوحيد الذى هو ضرب من عبادة الاوثان .. ثم هي بعد هذا التشويه في الدين ، ليست بذات رسالة في الدنيا ولا بذات طور من اطوار التاريخ .. فليس لها عمل باق في سجل الاعمال الباقيات .

عالم يتطلع الى حال غير حاله .. عالم يتهيأ للتبديل او للهدم ثم للبناء